Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علي مصطفى المصراتي

مؤرخون من ليبيا
مؤلفاتهم ومناهجهم

عرض ودراسة

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤرخون من ليبيا

مؤلفاتهم ومناهجهم

علي مصطفى المصراتي

ـ الطبعة الأولى: (1977)
ـ الطبعة الثانية: الربيع 1370 ور (2002)
ـ كمية الطبع: 3000 نسخة
ـ رقم الإيداع المحلي: 4185/ 2001 دار الكتب الوطنية بنغازي
ـ رقم الإيداع الدولي: ردمك 6 - 0132 - 0 - 9959 ISBN

ـ جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر:

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإ

مصراته: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021
ص.ب. 1459 ـ بريد مصور 619410 ـ 051
E-mail: daraljamahiriya@maktoob.com

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإهداء

« إلى الذين أحبوا ليبيا وكتبوا تاريخها..

حتى غدوا جزءاً من التاريخ..

أهدي هذا الكتاب »..

علي مصطفى المصراتي

طرابلس 25 أغسطس 1976

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصطفى خوجة

ودفتر غدامس

كان من المثقفين في العهد القرمانللي بطرابلس ومن الذين لهم غرام بجمع الكتب واقتنائها والبحث عن النادر حتى كون مكتبة ذات أهمية كانت فيما بعد نواة لأول مكتبة عامة بطرابلس وكان اهتمامه أكثر بكتب التاريخ والنُسخ النادرة والطريف منها.

وله ميل إلى تسجيل التواريخ ونقل أشياء من وثائقه.

وقد حفظ لنا مصطفى قاسم خوجه المصري الطرابلسي كتابين لم يكونا من تأليفه هو.. ولكن له فضل إنقاذهما من الضياع ولولا اهتمامه بهذين الكتابين لضاعا في خضم الإهمال كما ضاع من المكتبة العربية والتاريخية شيء كثير..

الكتاب الأول من الشرق.. من مصر. والكتاب الثاني من واحة غدامس من أطراف ليبيا. الكتاب الأول عنوانه:

ـ أوضح الإشارات فيمن تولى مصر ـ القاهرة ـ من الوزراء والباشوات.. تأليف المؤرخ المصري ـ أحمد شلبي عبد الغني والنسخة الوحيدة الفريدة في العالم مخطوطة ومحفوظة بمكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية..

والمؤلف سجل أحداث مصر في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي ـ الحادي عشر الهجري. وإلى فترة وفاته 1150هـ 1737م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا الكتاب الذي ألفه أحمد شلبي أو جلبي عبد الغني يعتبر من أهم المصادر التي اعتمد عليها الجبرتي في تاريخه ومصطفى خوجة الطرابلسي نسخ بيده النسخة الوحيدة الباقية الآن في مكتبة جامعة «بيل» الأمريكية!

أرأيت كيف يرحل الكتاب.. ويختفي ويظهر.. ويخلد..! وفي ختام النسخة يقول مصطفى خوجة:

«.. وقد كتبه الآن العبد الفقير الحقير الكاتب مصطفى خوجة بن قاسم بن عبد اللّه قرشي النسب.. طرابلسي الدار.. حنفي المذهب. أشعري الطريقة لنفسه، ولمن شاء الله من بعده طالباً للأجر وجزيل الذخر. وفي أواخر ثاني الربيعين سنة 1210هـ من الهجرة النبوية (1715م).

* * *

والكتاب يقع في 532 صفحة

سجل فيه مؤلفه أحداث ووقائع من تاريخ مصر في العصر العثماني، سيما في القرنين السادس عشر، والسابع عشر سنة بداية الحكم العثماني حتى عام 1150هـ ـ 1737م والفضل في استكشاف هذه النسخة الفريدة والعثور عليها لصديقنا الدكتور ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ـ المدرس بكلية البنات بالجامعة الأزهرية.

وهو الآن عاكف على دراسة هذا النص ـ وقدم بحثاً عنه في مهرجان «الجبرتي الذي عقد بالقاهرة».

وعندما ورد اسم «مصطفى خوجة» أكدنا له أنه ليبي طرابلسي.. كان مهتماً بالتاريخ واستنساخ مراجعه، وتأكد هو من خطه المغربي.. وإشارته والدكتور ـ عبد الرحيم ـ يعد بحثاً عن النسخة لنشرها.

* * *

توفي مصطفى خوجة سنة 1213هـ 1897م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفرغ من نسخه لكتاب أحمد شلبي عام ـ 1210هـ ـ أي قبل وفاته بثلاث سنوات. .

وغريب أمر ترحال وتجوال الكتب!

كتاب يؤلف على شاطئ وادي النيل وينقل المؤرخ الجبرتي منه نصوصاً. . وكان في حوزته. .

ثم يفقد الكتاب ويختفي. . فترة من الزمن. . ثم يخطه ناسخاً مهتماً به مثقف من وجهاء وكبار المسؤولين في طرابلس الغرب ثم مرة أخرى تطوح به الأيام. . ويحفظ في مكتبة في جامعة بالولايات المتحدة الأمريكية. والفضل في بقاء هذه النسخة للكاتب مصطفى خوجة.

ويحفظ لنا مصطفى خوجه كتاباً تاريخياً آخر. . وأيضاً غدت النسخة الفريدة الوحيدة. . وأيضاً غريب أمر هذه السياحة والترحال لهذا الكتاب.

يسجل في واحة غدامس ونسخته تحفظ في مكتبة مصطفى خوجه ومدرسته بطرابلس. ثم يذهب هذا الكتاب إلى أوروبا. . إلى باريس وهو كتاب نسخته نقلت بخط مصطفى خوجة من زمام بلد غدامس. . فما هي حكاية هذا الكتاب الذي يؤرخ ويتحدث عن واحة غدامس؟

الكاتب مصطفى خوجة نسخ تقيدات من واحة غدامس قبل وفاته باثنين وثلاثين عاماً. أي وهو في ريعان الشباب. . ونقلها من وثائق غدامس ومعنى ذلك أنه رحل إليها. . أو هل نقلت إليه؟ الغالب أنه كتبها بخط يده نقلاً عن سجلات ووثائق مدينة غدامس. . كما يشير سطر الكلمة الموجزة في المقدمة أو التعريف (هذه نسخة نقلت من الزمام بلد غدامس القديم نصه بعد سطر افتتاحه).

والزمام هو السجل والقيد ويقصد به السجل القديم الذي كان في بلد غدامس وليته أثبت لنا سطر افتتاحه علنا نعثر على شيء قد يدلنا على أشياء أو يعطينا سطر الافتتاح ضوءاً يؤدي إلى مسرب أو ساحة من الساحات المتعرجة في الطريق التاريخي.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومصطفى الكاتب ابن قاسم الخوجة المصري من مواليد طرابلس وبها نشأ وتكون ودرس العلوم على أساتذة عصره منهم الفقيه الناظم محمد بن سالم الفطيس والفقيه عبد السلام بن ناصر وشيخ من أفريقية السمراء متصوف مكث بطرابلس هو محمد عبد الرحمن الكانوي البرناوي وكان من المقربين لعلي باشا القره مانللي. على الأول فقد شغل مصطفى خوجه منصب مستشار في حكومة علي باشا القره مانللي. . وكان من كتبة الديوان في عهده ومن مؤلفاته (المسائل المهمة والفوائد الجمة فيما يطلبه المرء لما أهمه). وهو كتاب لا صلة له بالتاريخ إنما مجموعة من المطالعات والفوائد وأشرنا إليه في فصلة كتبناها عن مصطفى خوجه في كتابنا لمحات أدبية عن ليبيا. . . وتوجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة الأوقاف بمدينة طرابلس.

إنما الكتاب الذي له صلة وموضوعه تاريخي هو هذه الرسالة أو هذه الأوراق التي نقلت ونسخت من سجلات مدينة غدامس. . وحوت موضوعات ونقاط ذات أهمية تاريخية. .

دفاع أهل غدامس عن واحتهم.

نظام توزيع مياه عين غدامس.

تقسيم القبائل والأحياء.

حملات على غدامس. . حملة رمضان باي.

وحديث شاهد عيان عن تنظيم الدفاع الشعبي عن الواحة.

عادات وتقاليد وأنساب.

الشيخ عومر خالد شيخ من غدامس وموقفه في الدفاع عن الواحة.

وإشارات أخرى يجد فيها الدارس التاريخي والاجتماعي مواد ونقاطاً تمده بكثير من الحقائق. وكان قد فرغ منها المؤلف أو المقيد والناقل عام 1181هـ ـ 1768م.

ويبدو أن هذه التقيدات التي نقلها وحفظها لنا مصطفى خوجه كانت من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأليف شيخ غدامسي، وكانت في أصلها عبارة عن جواب لسؤال وتلبية لرغبة بدليل هذا النص في الصفحات الأولى:

(قد سألني بعض الإخوان أن أكتب لهم ما وجدناه في عقود الأوائل وما سمعناه من الذي أدركناه من أكابر البلاد في عوايد غدامس من السالفات في مصالحها.. وبنيان السور والبيبان.. وعقر العريان ولزمة الترك.. والمؤونة ومجاري الماء وغير ذلك والله الموفق).

إذاً مصادر الكتاب أو الرسالة.. عقود الأوائل وسماع من كبار أهل البلد والحديث عن السور التاريخي والأبواب.. وما فرضه الأتراك من ضرائب.. ومجرى عين غدامس.. كلها أمور تاريخية تجد اهتماماً من مواطن على قدر من الوعي والاطلاع..

ومن هو هذا المؤلف الذي وجه إليه ذاك السؤال فأجاب بهذا الكتاب الذي غدا من أوثق مصادر تاريخ الواحة. من هو هذا الكاتب الذي أجاب رغبة بعض الأخوان. لم تشر السطور التي كتبها والتي نقلها الناسخ المثقف مصطفى خوجة.. من هو؟

وإن كانت الدلائل لا تدل على أنه كان معاصراً لحملة رمضان باي كما ستأتي الإشارة إلى ذلك، ثم أن هذه السطور على اقتضابها تدل على منهجه وطريقة تناوله لموضوع تاريخ واحة غدامس هي مصادر مكتوبة.. ومصادر مشافهة..

ما وجده في عقود الأوائل.. وما أكثر ما كان منها في غدامس.

ثم ما سمعه من الذين أدركهم من أكابر أهل الواحة.

ثم تناولت النسخة عوايد أهل غدامس من قديم في تنظيم العلاقات، وتوزيع المسؤوليات وتحدث عن السور والبناءات وعدد القبائل العربية وغير العربية وكلها أشياء تاريخية واجتماعية ذات قيمة علمية وقبل أن يدخل على الموضوع بالتفصيل باعتباره شيخاً له نصيب من الدراسة الشرعية قدم للكلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بشيء من النصيحة بأسلوب الوعظ والإرشاد وأوصى بالتقوى، والتواضع وإقامة الشعائر ثم ساق قصيدة أو كلاماً منظوماً بأسلوب تقليدي لا صلة له بموضوع الكتاب التاريخي. . إلا أن هذا التمهيد وهذا الانعطاف في الكلام ينم عن مشاعره الدينية ورغبته الإصلاحية وهو شيخ من شيوخ الواحة. .

ثم يبدأ الموضوع الذي يتصل بتاريخ واحة غدامس ويسوق نصوصاً هي من صميم الموضوع التاريخي وإن كانت من المرويات والمشافهات كما يبدو.

(. . وبعد ـ فاعلم أيها الواقف على هذا أن بلاد غدامس بلاد قديمة من زمان النمرود بن كنعان بن سام بن نوح وقيل قبله. . وقيل فارس من قوم النمرود الذي خَرّج ماء عينها ـ ثم بعد ذلك جازت قافلة على الوادي وقيلوا في الوادي، وتغدوا هناك، ثم رحلوا وساروا إلى أن باتوا، فلما أصبحوا أرادوا الرحيل ففقدوا آلتهم من الأكل، وقال أحدهم، نسيناها في غدانا أمس، ثم رجع فارس منهم على إثرهم حتى أتى إلى الوادي وترجل عن فرسه يطلب آلته، وإذا بالفرس تنبش الأرض وينبع من ذلك الموضع الماء ولذلك سميت بعين الفرس. وسميت البلاد بغدامس وقيل أول من سكنها أغدامس بن سام والله أعلم.). اهـ.

وهذه من الخرافات والأساطير المتداولة في تسمية البلدان. . وكل الشعوب لها لون من الأساطير والحكايات حول تسمية البلدان والبقاع منها ما هو من الخيال سدى ولحمة. .

وهنا إزاء هذه الحكاية التي يظهر عليها ملمح الأسطورة أبسط ما يوجه من تساؤل. .

هل كل النمرود وأهله يعرفون اللغة العربية حتى يقول هؤلاء غدانا أمس؟ بهذا الضبط والإيقاع؟ ولا شك أنها تضاف إلى وادي الخرافات الشعبية لا إلى التحقيقات والحفريات اللغوية لأسماء البقاع والأمكنة، إنها مثل الحكايات والأساطير المتعلقة باكتشاف البقاع أو بناء المدن وليس هنا مكان تفصيل هذا اللون من التفكير الخرافي. .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنما نكتفي بالقول هنا بأن غدامس هي سيداموس وهي كلمة غير عربية ولا صلة لها. . بغدا. . أمس. . أو غداً البارحة وأول أمس.

وحكاية اكتشاف عين الفرس أضيفت إلى أكثر من عهد من العهود التاريخية القديمة. . والله أعلم.

ومن طرائف ما كان يروى ويسوقه المؤلف لهذه الرسالة عند الحديث عن اكتشاف هذه العين التي هي شريان الحياة في الواحة.

(. . وتخرج في الزمان عين أخرى في الجانب البحري ويكون سبب خراب غدامس خروج هذه العين).

ويهتم المؤلف الغدامسي بتاريخ عمران ومسكن الواحة وأصول القبائل وتفريعاتها. . عربية وبربرية أمازغية.

(. . وأول من استوطنوا غدامس بنو ماني، وبنو مازيغ وأصلهم من قرارة بعين بنوها وعمروها، وتناسلوا فيها حتى صارت مدينة ـ ثم خربت، ثم صارت قصوراً ثم خربت، ثم صارت مدينة، ثم انقرضوا بنو مازيغ، وعصبوهم بنو ماني وتولوا البلاد فلم يزالوا على هذه الحالة إلى أن تولى ورنوغا يعني بنو ماني تفرعوا على ثلاثة فروع.

فرع خلف شارع بني ذرار.

وفرع بني فضل.

وفرع خلف ورنوغا.

ثم ورنوغا خلف واجليد ـ وواجليد خلف وليد ـ ودازيت ووليد خلف أولاد ليروهم ـ وأبي بكر وموسى. . ثم أبو بكر المذكور خلف أولاد داوود ـ وأما موسى خلف محمد بن موسى، ومحمد المذكور خلف ثلاثة أولاد وهم ـ موسى ـ وإبراهيم ـ وأكيار ـ وإبراهيم المذكور خلف أولاد إبراهيم ـ وأما كيار خلف أولاد كيار ـ وأولاد بربر وأما موسى خلف أولاد موسى ـ وعندهم سبعة ديار حمران أمر ولا يتهم بني وليد المذكور.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأما بني درار كلهم ولد يونس بن طلح). اهـ.

ويلاحظ أنه يوجد في الواحة ـ ضرار ـ في رأس الغابة ـ مران ـ ويوالي سرده للقبائل بالواحة وتفريعاتها سواء من أصل عربي أو بربري امازيغي طارقيّ ثم يعود ليرى أن غدامس من زمن سيدنا إبراهيم الخليل قبل النبي محمد صلوات الله عليه بثلاثة آلاف سنة. وفتحها سيدنا عبد اللّه بن جعفر أرسله عقبة بن نافع عندما كان بأفريقيا وكان فتحها صلحاً وليس عنوة ويشير إلى وجود الأصنام المنحوتة هناك وقد تركها الفاتحون على حالتها إلى الآن، وهي من الآثار والأطلال القديمة في غدامس.

ويرى المؤلف أن أولاد قاف أصلهم من دمشق وأولاد بن ديلم جدهم الأعلى حسان بن ثابت الأنصاري صاحب الرسول وشاعره وأما بنو ياقوت من ورغما. والفاضلات أصلهم من أوجله.

ويتحدث عن العيون في الواحة.

(.. وخرجوا لهم ساقية تنويش ـ يعني أول الحال أعين لها ثلاثة سواق الكبيرة الجانب الشرقي المعروفة بتاسك والوسطى من الجانب البحري المعروفة بتارط والصغيرة ـ من الجانب الغربي المعروفة بتند قزان). اهـ.

ويتنازع هؤلاء على الرياسة وليد وأخوه وأزيت، ورحل وليد للجانب البحري ودازيت للجانب القبلي حتى استفحلت بينهم المنازعات والمصاولة.

ويتحدث المؤرخ الغدامسي عن مراحل تاريخ الواحة التي هددتها ومزقت هدوءها قوات الاستبداد من الخارج في عهود الولاة.. والبايات.. والسلاطين.. وتنوعت الحملات. كانت الواحة لا تفرض عليها غرامات وأتاوات إلى عهد الدولة الحفصية.. ثم عكرت صفوها حملات المخازنية والقواد من العسكريين المغامرين الأتراك وغيرهم، ومن هذه النصوص تتبين المعاناة التي عاناها شعب الواحة.. (.. وغدامس ليس لهم المغرم للسلطان إلى الدولة الحفاصة وبعد زمن يرموا عليهم رمية المخزن ثم يبعثوا قياداً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويفسدون بالجور وأول من فرض قطيعاً معلوماً على غدامس ودرج مولانا أبو فارس.. فرض عليهم أربعمائة مثقال بل ويزيد على ذلك واستمر كذلك في دولة الحفاصة والترك). اهـ.

كانت غدامس تدفع إلى خزينة السلطان مثاقيل الذهب وينصرف مندوب الوالي أو السلطان البعيد ولا يصل إليها من أمور الإصلاح شيء.. بل جهد أبناء الشعب وحركتهم الاقتصادية ونظام القوافل هو الذي كان المورد والمصدر.. هو الاعتماد على الذات ولم يدخلها من يسرقها علناً. مثل ما صنع الذي حكى عنه المؤلف الكاتب.

(.. وما سمعنا ظالماً دخل غدامس وفياها عدا قايد إبراهيم من قياد بني حفص.

وأما في دولة الترك كل عام يبعثون شاوش ويعطوا له أهل درج وغدامس من غير زيادة ولا نقصان). اهـ. ويبرم الشاوش شواربه ويمضي بمثاقيل الذهب بعد أن يأخذ ما تيسر من الرشاوي باسم الهدايا ثم لم يتركوا الواحة في هدوئها وصمت أحزانها والتزامها بما ألزموها به بل ها هي أنواع من حملات العسكر تتوالى في كوكبة ودبدبة عندما شعروا بأن غدامس تكاد أن تكون مستقلة أو ذات تسيير ذاتي..

(وجاءها القايد يوسف بحملة، ورمى عليهم رمية المخزن وذلك سنة 862هـ ـ 1457م ثم أيضاً سنة 873هـ 1468م (في القرن الخامس عشر الميلادي). القايد أحمد ورمى عليهم رمية المخزن وقدرها ثلاثة آلاف مثقال. ثم قدم حسين باي.. ويشتهر بحسين النعال 883هـ ـ 1478م، وغلقوا دونه البيبان ثم عاد بعد الألف «1001هـ 1592م». جاءهم الباي درويش بحملة ورمى عليهم خمسة آلاف مثقال ـ رمى أي فرض وأجبرهم ـ وقسم القطيع ففرض على ـ درج ـ مائة وواحد مثقال وعلى غدامس ثلاثمائة مثقال. والنصف على بني وليد والنصف على بني وازيت واستمر الأمر كذلك كل عام يأتيهم شاوش ويعطوا له ذلك). اهـ.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(والفرق على النخيل والماء على المنفعة فبعد كل سبعة سنين يغيرون الغاية ويقسمون عليها النصف على بني وليد والنصف على بني وازيت). اهـ.

ويتحدث عن الحملات التي تعرضت لها غدامس ومن أهمها خمس حملات تعرض لها شعب غدامس ولم يستسلم..

(.. وبلاد غدامس جوها خمسة محال ولا خشها أحد إلا ببعضهم بعضاً ثم يصالحون مخافة على النخيل وأما الخروج لا يخرجون منها يضربون على أرواحهم من البلاد وجاءتها حملة القايد رمضان). اهـ.

وهنا نقطة ذات أهمية. فهذه إحدى الحملات العاتية كان من معاصريها ومشاهديها بل ومن الذين قاوموا مع صفوف الشعب في غدامس هذا الذي كتب وقيد هذا التاريخ مصدر معاصر.. وشاهد عيان. وما رأى كمن سمع.

يحكي لنا وصفاً من مشاهداته ويثبت لنا وثيقتين هامتين هما:

رسالة من صاحب الحملة.

ورسالة من شيخ غدامس.

ويصف لنا أيضاً ملامح رمضان باي صاحب عسكر تونس وهي من أهم الموضوعات التي تطرق إليها مع وصف عين غدامس.. وطرق توزيع المياه بها.

ويقول صاحب المشاهدات ومؤلف الكتاب:

(ونكتب لك إن شاء الله كيف صار بينهم وبين أهل البلاد والمحلة بعدما عينا ذلك وحضرناه الحمد لله من تواضع لله رفعه ومن تكبر عليه وضعه ومن توسل إليه بنبيه محمد ﷺ حماه ورفعه.

فاعلم أن رمضان باي صاحب عسكر تونس فهو رجل شديد أشقر الشعر، يظ العنق.. طويل القامة كلامه رعد قاطع). الخ.

هذه صفات ملامحه.. تؤكد أنه شاهده ورآه وعاين تصرفاته.. والمؤلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هنا يؤكد لنا أن هذا القائد صاحب الحملة له سنوات وهو يهدد وينذر ويتوعد غدامس بالقدوم إليها إن لم تبادر وتدفع ما يفرض عليها.

(.. وله منذ ستة أعوام يذكر القدوم إلينا). اهـ.

ويتبين هنا صورة من استعداد غدامس وتهيئتها لصد هجمات الحملات. لقد طلب القايد رمضان أن ترسل له غدامس ما يريد وإلا.. هجم عليها.

(وأقرب ما كان بعث إلينا كتاباً يريد أن نبعث له ثمانية عبيد قياد والدارطواش عمر كل واحد 15 عاماً مع ثمانية خدم ملاح عمرهم مثل عمر الفتيان ومائتين جلد شرابة) اهـ. فماذا كان جواب أهل غدامس على هذه الطلبات التي صحبتها نغمة تهديد من رجل يوصف بأنه صوته كالرعد.. لقد اعتذر أهل غدامس في أدب ولطف محتجين بضعف الحال. وقلة المورد.

فهل من حياء يمنع أو يحول القائد الظالم من الهجوم على غدامس (.. ولا بعتنا له ذلك.. وحاولنا بالتلطف وضعف الحال فلما قدر الله بقدر منه تواترت علينا الأخبار بأنه قادم لبلادنا بجيشه ونحن حينئذ مخادمين تحت السلطان ونؤدوا النايب الذي علينا). اهـ.

هذه الواحة البعيدة يطمع فيها السلطان وأعوانه وموظفوا الولايات فتعطي وترهق بالضرائب والجبايات. والمفروضات. ليس هذا.. فحسب.. بل هي لا يدعونها آمنة مطمئنة.. بل ها هي حملة من قادة تونس تهددها.

ولم يغفل أهل الواحة بل يتساءلون عن الأحوال ويرسلون في طلب الأنباء.. ماذا في الأفق من مخاض دموي.. ويتحدث المؤلف في سطور تعطي أبعاد الصورة وملامحها.

(.. وكتبوا لنا أولادنا في طرابلس بأنه قادم علينا).. إذاً وجب الاستعداد والتهيؤ للملاقاة الدامية.. كيف كانت المعركة.. والتخطيط لها؟

(.. أرسلنا رجلين لجبل الأعراض يلتمس لنا الأخبار فبعد أيام رجعا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقالا لنا الحملة وصلت ـ تطلون ـ ثم أرسلنا رجالة إلى سيناون ورجع لنا ثم انقسم أهل البلاد على ثلاثة أقسام.

كل يقيمون نهارهم بالبنيان وتهريس البارود ويقيمون ليلهم بالعسة.

فأهل شارع ـ تفرفرة ـ وشارع تصك ـ فزعة ـ وتوفزين ـ وبني درار ـ قسم ـ وجرسان ـ وبني مازيغ ـ قسم.

واتفق أهل البلاد إذا وصلت الحملة يرحل الشيخ عمر بن محمد بعياله ويسكن في ـ بني وليد ـ ويرحل الشيخ أبو بكر بن الشيخ موسى بعياله ويسكن في دار عومر المذكور لأجل تستهني البلاد وينصح في بعضهم بعض).

هذا الاستعداد والتنظيم يعطي فكرة عن تماسك أهل غدامس ودفاعهم في سبيل بلادهم.. تنظيم في الشوارع والمحلات وتصيد الأخبار.. وبعضاً منهم جعلوه لرفع الروح المعنوية إذ ينصح بعضهم بعضاً.. كما وزعوا الشيوخ على الأحياء والمناطق، والشيخ عمر انتقل ليسكن في بني وليد.. وهو من أحياء وشوارع غدامس.

ويحكي المؤلف عن كيفية المقاومة في صورتها كما شاهدها المؤلف.. وهي من الوثائق النادرة عن المقاومة الشعبية لأبناء الصحراء والواحات أيام الغزاة والحملات المدمرة..

(.. ثم أن المرسول رجع إلينا من سيناون.. وعلم بالحملة مصوبة إلى درج ـ وجاءت إلى درج ـ وفيتها وربطت خاصتها). اهـ.

وسيناون.. ودرج ـ من المناطق في طريق غدامس كما ذكر في التاريخ الصحراوي.. لا سيما أيام تجارة القوافل.. وفيّتها.. أي غارت عليها ونهبت ما بها.. والتعبير من الفي وهو تعبير ليبي متداول له أصل من الفصيح وربطت خاصتها أي سجنت وحبست أعيانها وأهل الواحة بها.

(وفيت أيضاً تقهه وهدت قصرها وفيت ماترس.. ورحلت مرحلتين.

والثالثة نزلت.. ترفين.. ونحن ظاهرين إذ قدم علينا أبو القاسم القرجوم بكتاب من الظالم المذكور ودفعه إلى شيخ غدامس الشيخ عومر بن محمد بن خالد بن سليمان من بني وازيت). الخ.

وقد ساق المؤلف في كتابه نص الخطاب.. وهو أيضاً وثيقة تاريخية - . وتكمن الروعة والشجاعة في شيخ غدامس على خطاب المتهدد المتوعد - - صاحب الحملة فكان رداً صريحاً.. واضحاً ليس فيه تردد الخائف ولا تلعثم المتردد.

والخطابان المتبادلان من الرسائل النادرة في تاريخ هذه الحملات والمقاومة الشعبية.. ولولا حفظ المؤلف لهذا النص. ولولا اهتمام مصطفى خوجة باستنساخ هذا الكتاب.. لضاعت هذه النصوص كما ضاع الكثير من المصادر التاريخية التي تكشف كثيراً من الحقائق.

أما خطاب صاحب الحملة فهذا نصه كما أورده المؤلف.

(.. الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه.

ـ من عبد اللّه سبحانه صاحب الحملة المنصورة بالله رمضان باي. - أيده الله تعالى..

إلى ولدنا صاحب الفضل والجمال الشيخ عومر بن الشيخ محمد شيخ بلاد غدامس.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولا زايد بعد حمد الله إلا حبكم ووددكم وأنتم منا وإلينا وسبق في علمنا أنك خديم الدار الكريمة من غير شك وتوفر علينا لخدمتك للدار الكريمة - . وشكرنا فضل إحسانك.. وجزاك الله عنا خيراً.. واعلم الآن ما عندنا إلا ما عندك. وبلد غدامس لنا سنجق، ونحن قدمنا عليكم ولا نبغوا إلا عمارة البلاد. وتكون أنت على يدنا.. وتخدم الدار الكريمة كما كنت تخدمنا في استخراج حقوقنا وقد أتينا بكتاب من صاحب المخزن المعمور وديوان العسكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(. . فلما ورد عليه الكتاب. . وقرأه. . غضب غضباً شديداً فلما طلعت الشمس. . ورد علينا بخيله خاصة وحلق على البلاد. . وفي صبيحة يوم الخميس في سبعة وعشرين من رمضان 1018هـ 1609م ثمانية عشر بعد الألف سحلت علينا العسكر في عدد وعدد. . وجد وجديد). اهـ.

والمؤلف كان دقيقاً في وصفه. . أميناً في نقله فهو يذكر في تقييداته إحصائية بالحملة وأنها كانت تحوي ألفين وخمسمائة. .

منهم أربعمائة خيل وثلاثة آلاف بعير.

وأربعمائة غرارة.

وجنود ورجال.

فماذا كان من أهل واحة غدامس؟.

(. . والتمت أهل البلاد من كل جانب ومكان. . والتقى الجمعان وعظم القتال. . حتى عاد النهار ليلاً من كثرة البارود ولا تسمع غير تصفير الرصاص وتغريد المدافع فيا له من يوم ما أعظمه. ومن هول ما أشده).

وحتى نساء البلد في غدامس قاومن حملة رمضان باي، وهو نص ذو أهمية يؤكد دور المرأة حتى في الواحات البعيدة في صد العدوان في القرن السابع عشر.

«فلو رأيت نساء البلد الأحرار كشفوا عن وجوههم».

ثم يتحدث عن كيف رفع الناس المصاحف. . والاستغاثة والنداء. . ويقول. .

«. . ويقدر الله نصر أهل البلاد وهزموا الحملة ونزلت مما يلي بني وليد. . في اليوم الأول نزلت على وازيت ومات من رجالنا ثلاثة. . ومات من الحملة عدد كثير». اهـ.

وكما سجل المؤرخ لقد بدأ القتال في ليلة القدر في رمضان ولم يراع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(. . فلما ورد عليه الكتاب. . وقرأه. . غضب غضباً شديداً فلما طلعت الشمس. . ورد علينا بخيله خاصة وحلق على البلاد. . وفي صبيحة يوم الخميس في سبعة وعشرين من رمضان 1018هـ 1609م ثمانية عشر بعد الألف سحلت علينا العسكر في عدد وعدد. . وجد وجديد). اهـ.

والمؤلف كان دقيقاً في وصفه. . أميناً في نقله فهو يذكر في تقييداته إحصائية بالحملة وأنها كانت تحوي ألفين وخمسمائة. .

منهم أربعمائة خيل وثلاثة آلاف بعير.

وأربعمائة غرارة.

وجنود ورجال.

فماذا كان من أهل واحة غدامس؟.

(. . والتمت أهل البلاد من كل جانب ومكان. . والتقى الجمعان وعظم القتال. . حتى عاد النهار ليلاً من كثرة البارود ولا تسمع غير تصفير الرصاص وتغريد المدافع فيا له من يوم ما أعظمه. ومن هول ما أشده).

وحتى نساء البلد في غدامس قاومن حملة رمضان باي، وهو نص ذو أهمية يؤكد دور المرأة حتى في الواحات البعيدة في صد العدوان في القرن السابع عشر.

«فلو رأيت نساء البلد الأحرار كشفوا عن وجوههم».

ثم يتحدث عن كيف رفع الناس المصاحف. . والاستغاثة والنداء. . ويقول. .

«. . ويقدر الله نصر أهل البلاد وهزموا الحملة ونزلت مما يلي بني وليد. . في اليوم الأول نزلت على وازيت ومات من رجالنا ثلاثة. . ومات من الحملة عدد كثير». اهـ.

وكما سجل المؤرخ لقد بدأ القتال في ليلة القدر في رمضان ولم يراع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعتدي الآثم حتى حرمة شهر رمضان وداوم القتال إلى يوم العيد.. حتى في الموسم في الشهر الحرام.. من فئة ادعت الإسلام.. والجيرة ويصف المؤلف الغدامسي تلك الأيام:

(ولما دامت المعركة والقتال اليوم الثاني والثالث إلى أن يحول بين الناس الليل وفي يوم الفطر أتانا العجمي وطلب منا الصلح). اهـ.

وقبل أهل الواحة الصلح بعد انتصارهم إنقاذاً للنخيل وخوفاً على هذه الثروة الزراعية فقد قطع على بني وليد خمسمائة نخلة وقبل أهل البلد المصالحة بخمسة آلاف يدفعونها لهذا الظالم.. ورحلت المحلة.. أي الحملة.. بعد أن صرع من جنودها أزيد من مئة.

ومات من أهل البلد عشرة من الأحرار.. وعشرة عتري ـ على حد تعبيره ـ وكان رحيلها يوم الثاني عشر من شوال..

ومن الطريف أن يصور ملاقاة جند الأتراك العتاة الظلمة فيقول مما يدل على أن رسالته هذه والصفحات التي أرسلها.. كانت على شكل تأليف.

(.. ويا أيها الواقف على هذا إذا دهمتك محاربة الترك فأنها أشد مرارة فاستعن بالله وتوكل على الحي الذي لا يموت واعمل مثل ما عمل قبلك يعني كيف نزلت علينا المحلة). اهـ.

وينصح المؤلف أهل بلده بالتعاون ويذكر بعض العادة والتقاليد في الواحة.. وهي تقاليد عريقة ذات مظهر حضاري.

ويشير إلى تقسيم القبائل وتفريع العائلات وتقسيم الأحياء والمناطق والشوارع.. وهي حقائق وأمور ذات أهمية لدارس هذه الواحة والمتأمل في تقاليدها وتراثها.

ولا نريد أن نطيل هنا في اقتباس النصوص.. فالرسالة أو الكتاب هذا جدير بالنشر والتعليق في بحث ودراسة أوسع نطاقاً.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يذكر في الكتاب التقاليد المعتادة في بناء السور والحفاظ على أبوابه.. وعين الماء التي في الواحة.. عين الفرس.. والتنظيم المائي حسب أصول هندسية وتقسيمات متعارف عليها بين الأحياء والعائلات.. وهي مصطلحات وتقسيمات دقيقة لا تخلو من مصطلحات فنية وخبرة علمية.

إن عين غدامس.. من أشهر عيون العالم في تاريخها ومن أعرقها في العادات والتقاليد والتنظيمات التي جعلت للواحة طابعاً معيناً مميزاً.

فضلاً عن المعمار والبناء والممرات والأسقف والدهاليز. ويتحدث عن كيفية ـ القادوس ـ السطل ـ وثقبه وتدفق المياه منه بعملية حسابية دقيقة حسب أصول وقواعد متوارثة. وتقسيم الماء بالعدد.. وأجرة الكيال.. ومن يكتب ويقسم حصص الماء بين الناس.. الخ.

وجاء في ختام الصفحات لهذه الرسالة العلمية الدسمة.

(وهذا ما وجدناه قيدناه وبالله التوفيق على أفقر الورى وأحوجهم إلى رحمة الله الكاتب مصطفى خوجه بن قاسم المصري كفله الله بمنه.. تاريخ 7 محرم الحرام فاتح 1181هـ). اهـ.

وهكذا كان الفراغ من نسخها عام 1181هـ الموافق 1767ف.

وبالكلمات مصطلحات وتعابير ليبية منها:

عوايد = رسوم = ضرائب	خاصتها = وجهاء وأعيان
لزمة = عهدة أو احتكار	سبيل العادة = الأمر المعتاد = المألوف
قيلوا ـ ارتاحوا وقت القيلولة	حلق = دار به.. طوقه
الأصنام = الآثار	غراره = شكارة
المغرم = الآتاوات.. الضرائب	القادوس = دولاب لجريان الماء
المخزن = الحكومة أو الإدارة	البيبان = جمع باب في اللهجة
فيَّاها = نهبها	والفصيح أبواب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النفاق = التمرد

يخسروها = يصرفو عليها

الحيوط = حوائط

سنجق = علم = . . إدارة

رمية المخزن = حملة السلطان أو الدولة

محلة، محال = حملة

عتري = زنوج

تهريس البارود =

عسة = حرس

تتهنى البلاد = تطمئن من الهناء

المرسول = الموفد = المرسل

ربط ـ ربطت = حبس